خيط من النور

بقلم : محمود البدوى

فتح عينيه فألفى الظلام يخيم على الغرفة فأصابه ما يشبه الذعر ·· اذ كان يود أن يغادر القاهرة فى قطار الساعة السادسة الى الاسكندرية ·· ليكون بنجوة هناك من كل مطاردة ويختفى عن العيون ·

وكان النوم قد غلبه وهو جالس على السرير لارهاقه الشديد وشعوره المجسم بالحادث الذى تجلى له ·· مروعا حتى زلزل خواطره وسد كل المنافذ فى وجهه ·· فهرب من الواقع المروع بجسمه ونفسه واستغرق فى النوم ·

وعجب شوقى لكونه ينام فى هذه الساعة العصيبة ولكن أعصابه المرهقة طوال الأيام الماضية كانت فى حاجة فى الواقع الى هذا الاسترخاء الطويل وأفاده النوم فعلا ·· وفتح عينيه وهو يحس بأنه صلب وانه قادر على مجابهة الأمر بعد أن كان قد انهار كلية فى النهار وكاد أن يسلم نفسه ·

وكانت الغرفة سابحة فى الظلام · ولكن نافذتها الوحيدة المطلة على الشارع الخلفى كانت بمثابة حلقة اتصال بالعالم الخارجى ·· فحدق فى العمارة المواجهة ··وكان بياضها قد ضرب الى السمرة من فعل الزمن واستقر بصره على شرفاتها ونوافذها وكان بعضها مضاء من خلال الشيش المشرع ·· وبدا الزجاج يلتمع من سقوط المطر وأحس بالرغبة فى أن ينهض من الفراش ليشاهد · مقدار البلل الذى أصاب الشارع وتعرف حالة المطر هل كان رذاذا أو سيلا منهمرا ·· ولكن الضعف والخمول ولزومه الفراش منعته من الحركة وأحس بالعرق الغزير يبل الفراش مع انه خلع سترته قبل أن ينام ورأى أن يبقى بالقميص والبنطلون ليكون على استعداد تام لكل الطوارىء ·· ولكن الخوف زاد من افرازات العرق كما أنه دفع الغطاء وكوره فوق رأسه وهو نائم وكأنه يحتمى به من كل ما يأتى به القدر ·

وحرك البطانية جانبا ·· واضطجع وقد جعل رأسه ناحيـة الباب بعد أن أحس بحركة النزلاء فى « البنسيون » ·· وكانوا قد تجمعوا فى الحجرة الخلفية ليلعبوا القمار كعادتهم وسمع صـوت مدام سـوزان صـاحبة البنسـيون وضحكاتها ثم صوت ابراهيم أفندى ·· وكان أكثر النزلاء ·· تحمسا للعب · وهو الذى يجمع رفاقه على المائدة من الساعة التاسعة ليلا ويظلون فى لعب القمار الى الصباح ·

وكان أرمل ومنذ ماتت زوجته وهو يعيش فى البنسـيونات والفنـادق مضـطربا فى معيشـته ويبدو تاعسا وحيدا حاسا بالفراغ القاتل ·

وكانت « سوزان » صاحبة البنسيون تشاركهم فى اللعب أحيانا ومعها سيدة شابة من شقة مجاورة فى نفس العمارة وذلك فى الحالات التى يحمى فيها وطيس اللعب ·· وتـكون متأكدة من اخراج مبلغ مناسب للمائدة التى يلعبون عليها ·· وكان يقر فى حسبانها دوما ان فى مائدة القمار والحسـان اللواتى يجلسن حـولها اغراء للنزلاء عـلى البقـاء « بالبنسيون » ·· والتعلق به وعدم تركه الى غيره ·· والبنسيونات والغرف المفروشة فى القاهرة كثيرة جدا ·

ولخبرتها بالرجال ولباقتها لم تلح على « شوقى » فى أن يلعب القمار مع النزلاء لما وجدت أنه لا يحب ممارسة هذه اللعبة ·

كما انها لم تقصر فى العناية به فى بيتها بسبب انه يدفع أقل النزلاء أجرا بل كانت تعنى بفراشه وبنظافة غرفته كأى نزيل آخر يدفع ضعف أجره ·

وكانت تحنو عليه وتنزله من نفسها منزلة خاصة لشبابه وصباحة وجهه ·· اذ كان هو الشاب الوحيد وبقية النزلاء من العجائز ·

كما كان هو الوحيد الموظف فى الحكومة ويدفع لها أجر الغرفة بانتظـام ·· وأكثرهم اسـتقرارا اذ مضى عليه فى بيتها أكثر من سنة وغـيره من النزلاء كالقومسيونجية والعابرين لا يمـكثون أكثر من شـهرين أو ثلاثة ، وكانوا يتعبونها لكثرة تنقلهم ··ولأنهم يدفعون شهرا ويؤجلون الدفع أشهرا ··

وكانت مستريحة « لشوقى » راضية عنه لأنه هادىء الطباع قليـل الزوار قليل المطالب ،وكانت قد بصرت به فى هذه الليلة··وهو مستغرق فى النوم من وقت الظهر على غير عادة ففتحت عليه الباب برفق وهو نائم ثم ردته لما رأت استغراقه وأدركت أنه متعب فتركته ليستريح ·

ولما فتح « شـوقى » عينيـه كان صوتها هو أول صوت وصل الى سمعه·· فبقى فى مكانه يحدق فى الظـلام ·· فوجد سترته ملقاة كما اتفق ·· وبعض الـكتب على الطاولة وبجوارها دورق وكوب والنافذة مشرعة ·· ولاحظ فى البيت المقابل حركة ليلة الأحد ·· اذ كانت معظم الشقق مضاءة وكانت العمارة

عالية حتى حجبت عنه نجوم السماء وهو في مكانه على الفراش ٠

ولما نهض من السرير وجلس مسترخيا على الكرسى تحت النافذة مباشرة رأى جانبا من السماء والنجوم تطاردها السحب وأنس الى أنوار العمارة المقابلة وتحرك سكانها ٠٠ ودار فى خاطره ان المطر قد انقطع منذ ساعة واحدة وان الليلة شديدة البرودة ٠٠ والسماء أخذت تدكنها السحب السوداء ٠

وشعر انه احسن حالا بجلوسه على الكرسى ٠٠ وارتدى سترته على عجل فشعر بالدفء ٠٠ وزايله بعض الاحساس بالقلق ٠

وكانت فى رأسه صورة « عفاف » وهى زوجة رجل سكير مقامر يقيم فى نفس البنسيون ٠٠ وكانت تلاحقه برغباتها المكبوتة وهو يصدها برفق٠٠ وخشى لو دخلت عليه الغرفة فى هذه الساعة أن يضعف ويستجيب لرغباتها٠

وفتح عينيه جيدا ٠٠ وظل يحدق فى الباب بقوة والأفكار تعصف برأسه وتقوده الى الشرود ٠٠ كان يتعذب ٠

وأحس بحاجته الى أن يذهب الى دورة المياه ٠٠ فخلع سترته ٠٠ ومشى الى الباب دون أن يضىء المصباح ٠

وشعر بالبرد فى الغرفة ٠٠ وبحركة النزلاء الساهرين على مائدة القمار ٠٠ ولمح قبل أن يدفع باب الحمام ٠٠ « روحية » نائمة فى المطبخ وكانت متكورة على البلاط ومعرية فخذيها وترتعش من البرد ٠٠ فشعر بالأسف لحالها :

وأسرعت نبضات قلبه وتنبه بصره عليها ٠٠ ان هذه الفتاة معه فى نفس البنسيون منذ سنة وأكثر وهى أجمل من وقعت عليه عيناه فى كل النساء فى داخل البنسيون وما يجاوره من البيوت ٠٠ وقد أشفق عليها لما رآها مهضومة الحق وسيدتها لاتعاملها بانسانية ولا تترفق بها ٠

***

ودخل الحمام ٠٠ واخذ يغتسل وهو يحس ببرودة الماء على أصابعه ووجهه ولكنه أحس بأنه أفاق وذهب عنه الشرود ٠

وتولد عنده احساس قوى ٠٠ لأن يرى الشارع يرى الدنيا فى الخارج وماذا حدث لها وجرى فيها ٠٠ فأطل من نافذة الحمام الصغيرة بعد ان أغلق مفتاح النور ٠

كان الليل شاحبا ٠٠ وكان الشارع يعج بالسيارات تحت المطر ٠٠ ولم يكن بين المارة ولا فى الحركة المتصلة توقف ولا أدنى احساس لما حدث ٠

فخمن ان العسكرى الانجليزى لم يصب من القنبلة وانها ذهبت هباء ٠٠ ولم تحدث أثرا يذكر ٠٠ وأخذ يستعيد فى ذهنه الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها وأدهشه ان يستعيد كل شىء رغم مافى ذلك من الم ٠

وسمع وهو راجع الى غرفته ابريقا يئز على النار فى المطبخ ٠٠ فأدرك أن نزيله تعد لنفسها الشاى ٠

ولما جلس على سريره بعد أن أغلق الباب بالمفتاح ٠٠ تلاشى شعوره بالاستقرار ٠٠ وأخذ يحدق فى الظلام

.. وفى النافذة المطلة على الشارع وعلى الجانب المقابل .. أخذت انوار الحجرات تخفت .. ويغمر الظلام كل واجهات البيوت .

وتولدت عنده كراهية للسياسة ولعنها ولعن الساعة التى انتمى فيها الى الحزب..ولعن كل الأحزاب الموجودة وساءه أكثر انه اشترك مع اثنين آخرين فى القاء القنبلة وكان قد سمع ان احدهما قبض عليه فى مكان الحادث وقد يعترف .. ويذكر اسمه .. وانهم الآن يبحثون عنه وارتعش قلبه .

كانت أعصابه قد تفككت .. ثم عادت وتماسكت مؤكدة عنده احساس مدمر بالقلق والتعاسة المرة .

كان كل ما يحسه هومزيج من الحاجة

الى النوم او الاسترخاء ·· او الحاجة لأن يدفن رأسه فى صدر امرأة ويطلق توتر اعصابه ·

وأحس بالظلام يلف وجدانه ومشاعره وكل أحاسيس نفسه ·· وغمره احساس بأن السياسة عبث والحياة عبث ووجوده كله عبث ·

أحس بأنه يرى قوة أكبر منه آتية لتحطمه آتية لسحقه ·· ولا قبل له بردها ولا وقفها ·

كان مضطجعا يحدق فى الظلام وهو عابس الوجه ويحاول ان يحلل الخوف ويحلل مشاعر نفسه ·

ورجع فى تلك اللحظة يفكر فى الفتاة المسكينة « روحية » التى تعمل خادمة عند سيدة مصرية متزوجة وكانت السيدة تتخذ من البنسيون بيتا تطبخ وتعمل فيه كل شىء كأنها فى بيتها الخاص فجاءت بهذه الفتاة معها ولكنها لم تعاملها برفق وكان شوقى يشعر نحو الفتاة بعاطفة انسانية دافقة ·· ويتألم لحالها وهو يراها نائمة فى المطبخ على البلاط فى ليالى الشتاء وفوقها غطاء خفيف وتحتها شىء اشبه بالحصير لايقيها شر الرطوبة ولا رعشة البدن فى الليل المقرور ·

وعلى توالى الأيام تحولت الشفقة الى حب ·· وحب متمكن من شغاف القلب وكانت الفتاة تراه وحده فى الغرفة لايختلط بسكان البنسيون ولا يزور احدا ولا يزار ·· فأنست لوحدته ·· وكانت تحمل له دورق الماء وكوب الشاى واذا رأته يغسل شرابا أو منديلا فى الحمام تناولته منه بسرعة وغسلته ونشرته وهى تنظر حواليها خوفا من ان تراها سيدتها فتؤنبها على هذا العمل وربما تشتمها وتسمعها الكلام الموجع ·

وكان شوقى اذا عاد من عمله ولم يرها أو يسمع حسها فى داخل البنسيون يحس بالوحشة وبالاشتياق حتى تعود من الخارج ·· وأول شىء تفعله وهى راجعة هو المرور على بابه لتتأكد من وجوده فاذا وجدته أشرق وجهها وفاض البشر على محياها حيته وانصرفت مسرعة الى عملها ·· وكانت لهفتها واشتياقها الى لقائه أضعاف لهفته واشتياقه ·

وفى الساعة التى يذهب فيها سيدها بصحبة سيدتها الى السينما أو الى مشوار فى الخارج ·· كانت تمضى الوقت كله ·· فى غرفة « شوقى » ويحسان فى هذه العزلة الحبيبة بالامتزاج والنشوة والحب ·

وأحس بأنه شغل عنها فى ايامه الاخيرة بالحادث السياسى فلما فرغ منه وقرر الهروب الى الاسكندرية اختلى بها وحدثها برغبته فى اخذها معه ·

وسألته برقة واستغراب :

ـ أروح معك اسكندرية ؟! ··

ـ نعم ·

ـ ازاى ؟

ـ سنعيش سوا ·

ـ لكن أنا خدامة ·· ياسيدى ·· ؟!

ـ لا أحب سماع هذه اللفظة ·· ولا تقوليها لى أبدا ؟

ـ امال أقولك ايه ؟

ـ شوقى ٠

ـ شوقى بس ٠٠ ؟

ـ بس ٠

ـ لكن انت سيدى ؟

ـ لا تقولى هذا الكلام ٠٠ ولا يوجد أسياد وعبيد فى العـــالم ٠٠ الله خلق الناس سواء فى هذه الدنيا ولكنا نحن الذين نفرق بينهم ٠٠ ونجعلهم طبقات بحماقتنا وغرورنا الانسان عندمايتجبر ٠٠ يطغى ٠٠ ولا يقف طغيانه عند حد ٠٠ كما يطغىالانجليز الآن ٠٠ويحاولون أن يستعبدونا ٠٠ ولكنا ســـــنوقف طغيانهم ٠

وتحمس ومد قامته وبدا امامها قويا واعجبت لحماسته وقوته ٠

واقترب منها واحتضنها ٠٠ ومسح على شعرها بحنان وحب ٠٠ وسألها :

ـ ستسافرين معى الى الاسكندرية ؟

ـ نعم والى كل مكان ٠

فقال هامسا :

ـ فى ساعة الفجر ٠٠ سنفتح الباب بهدوء ونخرج معا ٠٠ فاعملى حســابك وكونى صاحية ٠٠

ـ مش حنام أبدا ٠

وتركته ٠

وظل هو متيقظا يرسم خط ســيره وتحركه ٠٠ والمكان الذى سيقيم فيــه فى الاسكندرية بعيدا عن العيـــون ٠٠

وكان معه حوالى ستة عشر جنيهـــــا سيقطع منها ثمن التذكرتين والبـــاقى يصرفانه حتى يتدبر حالته ٠٠ ويشتغل هناك فى أى عمل ٠٠ والمدينـــة كبيرة ولن يجوع فيها ٠٠ وستبقى « روحية » فى البيت لن تشـــتغل فى أى مـكان وسيتزوجها ويعمل على اسعادها ويرفع من كيانها وانسانيتها ويرد لها حقهـــا المسلوب ٠

وفتح شوقى باب البنسيون وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صـــباحا بقليل ولا يزال الظلام يخيم ودفع الفتاة امامه بحذر على السلم ونزل وراءها ٠

وفى مدخل العمارة لمح شيئا جمد له قلبه ٠٠ فقد رآهم يرابطون على البـاب وأخذوا يقبلون نحوه بخوذاتهم النحاسية وفى ايديهم البنادق ٠٠ وكان يتقـــدم القوة اثنان من الكونستبلات الانجليز وبدا له جليا انهم قبضوا على رفيقـــه وانه هو الذى وشى به ودلهم على مكانه ٠٠ وكان ابداء أى حركة مقاومة منـه معناها ٠٠ صرعه وصرع الفتاة المسكينة فظل ثابتا فى مكانه ٠٠ حتى طوقوه ٠

وعندما وضعوه فى « البوكس » ظلت الفتاة واقفة وحدها على عتبة البـــاب تصرخ ولم تكن قد فهمت شـــيئا ٠٠ ولكنها ظلت مع ذلك تصرخ بحرقةوكان صراخها يمزق نياط القلب ٠

وكان شوقى يسمع صراخ الفتـــاة والنور يشعشع من خلال الـــكوة فى العربة المغلقة وظل يفكر فيهـــا وفى صراخها وعذابها وهو فى العربة وومض فى رأسه خيط من النورأضاء له الطريق للهرب والعودةاليها ليخلصها منالعذاب ويخلص نفسه ٠٠ قبل ان يضـعوا فى عنقه الحبل ٠